

عيد الفقراء

د. وليد قطّاب

- العيد يقترب شيئاً فشيئاً، ومع اقترابه تتضخم المأساة، وتزداد حدتها، ويرتسم شبحها مزعجاً مقلقاً في عيني أبي عمر. وصوت زوجته لا يكفّ عن تذكيره كلما أوشك أن يخلد إلى شيء من التناسي:-

- العيد على الأبواب يا أبا عمر..

فيجيب بانكسار:-

- أعرف، أعرف يا امرأة...

فتقول محتجة:-

- ولكنك لا تفعل شيئاً يا رجل.. أيا عيد ولا نشري كسوة جديدة للأولاد، أو يدخل بيتنا طعام دسم أو بعض من الحلوى التي لا يخلو منها بيت في هذه المناسبة؟.

حقاً، هذه أشياء لا بد منها في العيد. والدنيا منذ أكثر من أسبوعين قائمة قاعدة، تستعد لهذه المناسبة. الأسواق أصبحت لا موطىء فيها لقدم. والناس تدفع بلا حساب. تشتري حلاًلاً جديدة، وهدايا للأولاد، وأطعمة وحلوى وأشياء لا تعد ولا تحصى. المال يتدفق من هنا وهناك، كنهز لا ينقطع. عجباً، من أين يأتي الناس بهذه الأموال؟ حتى جاره أبو سعيد، الموظف البسيط في وزارة التربية، كم مرة التقى به في الحارة وهو يتنحّج من ثقل ما حمل من رزم وأكياس كاد يخنفي وراءها، وجاره الحاج رضا لا تكف زوجته عن التباهي أمام الجيران بما يحمل زوجها كل يوم من أشياء العيد وحاجاته.. إلا أنت يا أبا عمر، الوحيد في الحارة الذي يبدو أن الخيبة قد حلت عليك، على حد تعبير أم عمر.. تصرف يا رجل.. نريد كسوة للأولاد وطعاماً وحلوى.. أولادنا ليسوا أقل من أولاد الناس.. ولكن كيف تتصرف يا أبا عمر؟ العين بصيرة واليد قصيرة، يتخيل نفسه مثل أبي سعيد أو الحاج رضا، يدلف إلى حارته وبين يديه عدد من الرزم والحزم والأكياس، فيها ملابس

زاهية، وأحذية جديدة، وحلوى للأولاد، وسوف يرفع رأسه في الحارة يتأهاً فخوراً، إنه رجل مثل رجال الحارة جميعاً، يستطيع أن يشتري كما يشترون، وينفق كما ينفقون، ويجلب مثلما يجلبون، ولن تستقبله أم عمر في هذه المرة بعبارات السخرة المعتادة:-

- عدت يا أبا عمر ملوحاً بيدك؟..

بل ستفغر فاهها دهشة وعجباً، وستشرق على ثغرها ابتسامة انطفأت منذ عهد بعيد، ويزداد انطفائها يوماً بعد يوم كلما أوشك العيد أن يقرع الأبواب، وستهرع عصابة الأولاد تخطف ما يحمل، فتشرق البهجة في المنزل، وتزهو في العيون ابتسامات وضحكات.

ويستفيق من خوابه. عجباً، ما بالك قد أسرفت في الحلم يا رجل؟ لقد انتهى زمن المعجزات منذ عهد بعيد. والمعجزات والكرامات لم تظهر إلا على يد الأنبياء والأولياء الصالحين، وأنت عبد ضعيف من سوقة الناس، لم تؤثر لك مكرمة من مكرمات الدين أو الدنيا.

وتابع طريقه إلى المنزل، وكلما اقترب طفحت التعاسة على وجهه، وعضته كآبة مؤلمة. سيجد الأولاد بانتظاره عند الباب وقد عللوا أنفسهم بأمل في طيبات لا حصر لها، إنهم يتصورون أباهم - مثلاً يتصور جميع الأولاد آباءهم - عملاقاً يصنع المعجزات، وحسبهم أن يفضوا إليه بما يريدون، حتى يحققه في الحال، صحيح أن القلق قد بدأ يساور أولاد أبي عمر في هذه المرة؛ فكل يوم يعود أبوه خاوي الوفاض، والأيام تزحف بسرعة، معلنة اقتراب العيد، ولكنه قلق لم يززعز قط يقينهم في أبيهم، إنه بلا شك سيحمل إليهم كل شيء في الوقت المناسب تماماً، أما أبو عمر فكانت

قصة
قصيرة

عند مدخل الحارة لمح ثلثة من الأولاد.

كانوا منهمكين في لعبهم وضوضائهم، فلم يشعروا بمرورة، ولكنه لمح عند حنفية الماء التي في مدخل الحارة ابنه عبد الرحمن في ثيابه الرثة. كان يقف مع عادل ابن الحاج رضا الذي رفل في ثيابه الجديدة، ويده لعبة براقه كان عبد الرحمن ينظر إليها مبهوراً، ويحاول أن يتحسسها بيدين مرتعشتين. لم يشعر عبد الرحمن بمرور أبيه، ولكن أبا عمر ما كاد يصبح بمحاذاة ولده حتى صك سمعه صوت عادل يقول لرفيقه:

- ماذا أحضر لك أبوك على العيد يا عبد الرحمن؟

أمسكت أبا عمر غصة في حلقه كادت تخنقه، وتسمّرت قدماه، بينما أجاب عبد الرحمن صديقه بانكسار وبراءة:

- لم يحضر لي أبي شيئاً حتى الآن .. ولكن أمي أكدت لنا أنه سيعود اليوم ومعه ملابس وحلوى ولعب كثيرة ..

شعر كأن أحداً صفعه على وجهه صفعة أذهبت قواه، فاستند إلى الحائط لأنه أحس في الوقت نفسه أن قدميه لا تقويان على حمله، ثم سمع الأولاد المتجمعون خبطة قوية، فالتفتوا نحو مصدر الصوت مذعورين.

ظل أبو عمر في حالة غيبوبة طوال اليوم. وعندما فتح عينيه في المساء كان وجهه يحاكي صفرة الموت، وكانوا ملتفين حول سريره وفي عيونهم نظرات حزن وألم وانكسار. وعندما استطاع أخيراً أن يجد صوتاً واهناً التفت إلى زوجته، وغمغم بذل:-

- لا تؤاخذيني يا أم عمر .. عدت كالعادة ملوحاً بيدين فارغتين ..

فهمست أم عمر بصوت مؤثر، يعكس إحساساً بالذنب، وهي تربت على كفه بحب واعتذار:

- سامحني يا أبا عمر .. ولا تهتم بهذا الآن .. أنت أعز علينا من كل شيء في هذه الدنيا ..

ثم مسحت دموعاً غزيرة تجمعت في مآقيها، بينما غطت

الغصة تملأ حلقه وهو يتجه إلى المنزل، كيف يحقق للأولاد ظنهم؟ كيف يحافظ على صورته في عيونهم فلا تضطرب أو تهتز؟ إنه يزرع دائماً تحت أعباء ثقيلة لا يقوم مرتبه الضئيل بتحمل بعضها إلا بشق النفس، وقد قبض منذ أيام هذا المرتب مع زيادة تُعطى عادة في الأعياد، وبعد أقل من أسبوعين كان قد أنفق شطره الأعظم، ولم يبق في جيبه إلا مئة ليرة لا تكاد تصنع شيئاً في هذا الغلاء الفاحش الذي أصبحت فيه الليرة مثل القرش، والعشرة مثل الواحدة، عجباً، كيف تغيرت الأحوال والناس والأيام؟ كانت المئة ليرة ذات يوم ثروة تصنع الكثير، ولكنها اليوم تافهة لا تكاد تكفي حاجة يوم. ماذا يفعل؟ استدان في الشهر الماضي من صديقه الحاج خليل ثلاثمائة ليرة على أن يسدها في أول الشهر الحالي، ثم اعتذر إليه، وكان يعتزم أن يطلب من الرجل مبلغاً آخر يستعين به على أعباء العيد، ولكنه أمسك عندما وجد اعتذاره يقابل بغير ارتياح؛ فقد غمغم الحاج خليل متذمراً:-

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. كان ينبغي أن تخبرني بهذا من أول الأمر حتى أتدبر شأني يا أبا عمر.

تابع طريقه إلى المنزل والأفكار تعصف برأسه.

كم يتهيب العودة وهو يتخيل تلك الوجوه التي سيلقاها! وجوه فيها تطلع وتساؤل، وعليها لهفة وأمل. سيسرعون إليه وقد حسبوا أنه جاءهم أخيراً يحمل الفرج. ولكن أكثر ما يقتحم عليه خواطره المرهقة صورة زينب كبرى أولاده وقد أطلت من عينها دائماً تلك النظرة الحزينة المنكسرة. إنها - فيما يبدو - الوحيدة في هذا المنزل التي تشعر بالمأساة، وتشاركه المعاناة على صغر سنها. سمعها منذ يومين تعاتب أمها عتاباً رقيقاً بعد أن أغلظت له في القول، واتهمته كالعادة بالخيبة والغفلة وقلة الحيلة. كانت تقول لأُمها:-

- لا نريد شيئاً يا أمي .. عندنا كل شيء .. وأبي لن يخل علينا إن كان معه، فلماذا لا تكونين رقيقة في حديثك إليه؟

عجباً، كيف تدرك زينب الأمور على هذا الوجه؟ وبقدر ما أسعده كلامها يومذاك، أتعسه أن تحمل - على صغرها - إصر المعاناة، ومرارة الإحساس بالوطأة والشدة. إن ذلك يجعلها تكبر قبل أوانها.

عذبه هذا الشعور، وأصبحت زينب مبعث هم وقلق آخرين.